الفصل الثاني

أرسطو..
والعلم اليوناني
(٣٨٤-٣٢٢ ق.م)

obeikan.com

أرسطو

• ١- النشأة التاريخية:

ولد أرسطو في "أسطاغيرا" وهي مدينة صغيرة في تبعد ٢٠٠ ميل إلى الشمال من أثينا، وكان ذلك في عام ٣٨٤ ق.م. وكان والده طبيب الملك وصديقه. وهو الملك "مينتاس" ملك مقدونيا وجد الإسكندر الأكبر. وقد نشأ أرسطو في بيئة طبية وتوفرت أمامه كل العوامل المساعدة على دراسة العلوم. حيث أعد من طفولته لذلك.

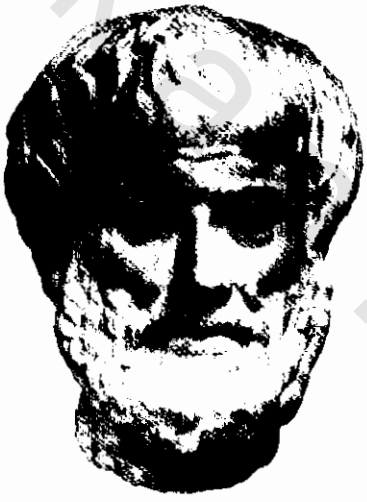

تمثال لرأس أرسطو فقط ويبدو أنه ما تبقى من تمثال كامل له

أما أيام شبابه، فهناك العديد من القصص لتلك الفترة، ومنها قصة تقول إنه بعثر الأموال التي ورثها وعاش حياة طائشة، واضطر إلى الالتحاق بالجيش حتى لا يموت جوعًا. ثم عاد إلى ممارسة الطب الذي تعلمه، وفي سن الثلاثين عامًا ذهب إلى أثينا ليدرس الفلسفة على يد أفلاطون.

وهناك من قال إنه سافر إلى أثينا وهو في الثامنة عشر من عمره. وهناك تتلمذ على أيدي أفلاطون، كما أن هذه الرواية تشير أيضًا إلى ما مر به من طيش ومغامرة. إلا أن الروايتين تجمعان على أنه استقر به الأمر ليدرس في مدرسة أفلاطون.

وهناك من يقول إنه درس على يدي أفلاطون لمدة ثمان سنوات، وهناك من يرى أنه درس على يديه لمدة عشرين عامًا. لكن تأملاته وكتاباته تدل على أنه قضى عشرين عامًا يدرس على أيدي أفلاطون. وقد يتصور البعض أن حياة تلميذ نجيب مع معلم بارع كانت نعيمًا وهناء، إلا أن تفاهم العباقرة أمر صعب يشبه تفاهم النار والمتفجرات. فقد كان فارق السن بين المعلم وتلميذه ٥٠ عامًا. وكان من الصعب سد هذه الفجوة العمرية بينهما، إلا أن أفلاطون أدرك أن تلميذه القادم من الشمال -الذي كانت أثينا تعتبره همجيًا- شديد الذكاء واعتبره ذكاء مجسمًا يسير في الأكاديمية الخاصة به. وقد أنفق أرسطو المال الكثير في جمع الكتب ولم ينافسه في ذلك سوى يوربيدس. حيث جمع الكثير من الكتب وصنفها تصنيفًا جيدًا، لدرجة أن أفلاطون سمى بيت أرسطو "بيت القارئ" وكان ذلك اعترافًا منه بتفوقه. ولكن وفي نهاية حياة أفلاطون، وقع بينهما خلاف واضح. فبدأ أرسطو يشير إلى أن الحكمة لن تموت بموت أفلاطون. وفي نفس الوقت كان أفلاطون يصفه بالفرس الذي يرفس أمه بعد أن أصبحت عجوز لا تقوى على تقديم المزيد.

وهناك أخبار أخرى غير مؤكدة عن حياة أرسطو في أثينا، إلا أنها غير مؤكدة. حيث أنشأ مدرسة للخطابة لمنافسة "ايسوقراط" وكان من بين تلاميذه فيها "الوسر هرميس" الذي أصبح حاكمًا لمدينة ولاية "أتارنس" فيما بعد. وقد كرمه ذلك الرجل بتزويجه من أخته (أو ابنة أخته) فيما بعد.

ويقول النقاد إن أرسطو عاش سعيدًا مع زوجته بالرغم من شدة عبقريته، وكان يذكرها دائمًا بكل خير. وبعد عام واحد فقط من زواجه، دعاه ملك مقدونيا إلى بلاطه ليتولى تعليم الإسكندر. وهذا يدل على الشهرة الكبيرة له لأن أعظم ملوك العالم في ذلك الوقت ائتمنه على هذه المهمة الكبرى، وهي تعليم الاسكندر الذي سيصبح سيد العالم فيما بعد.

وقد أعد فيليب لابنه خططًا كبيرة، حيث غزا "لتراقيا" وسيطر عليها عام ٣٥٦ ق. م.

ونهل من مناجم الذهب فيها عشرة أضعاف ما حصل عليه من قبل من مناجم الفضة في أثينا. وكان الفلاحون في بلاده أقوياء ومحاربين عظامًا، ولم يتلوثوا بمفاسد المدينة بعد. وهكذا تهيأت له كل ظروف إخضاع العديد من المدن المجاورة وتوحيد اليونان سياسيًا. وقد لاحظ ما استشرى في المدن اليونانية من جشع وفساد تجاري وتفكك في النظام الاجتماعي. فقد امتص التجار دماء الشعب ووقف السياسيون عاجزون أمام ذلك. كما أدى تدخل الخطباء إلى مزيد من التفكك والمؤامرات والحروب والكوارث. حيث تمزقت الجماعات والقبائل، إلى درجة أن فيليب قال إنه ليس شعبًا بل خليط من العباقرة والعبيد، وأن عليه أن يخلق منهم شعبًا قويًا ويتحول الاضطراب إلى دولة وتعود اليونان مركزًا عالميًا قويًا. وقد درس الفنون العسكرية وهو لا يزال شابًا، لذلك تمكن من هزيمة الأثينيين في عام ٣٣٨ ق.م. وبعد ذلك الانتصار أعد الخطط حتى يسيطر على العالم هو وابنه. إلا أنه اغتيل بعد ذلك.

أما الإسكندر فقد كان في الثالثة عشر حينما قدم أرسطو لتعليمه. وكان شرسًا ومتأجج العواطف ومصاب بالصرع ويشرب الكحوليات. وكان يقضي وقته في ترويض الخيول الوحشية. ولم ينجح الفيلسوف الكبير في ترويض ذلك الوحش الكاسر. إلا أن الاسكندر أحب معلمه واعترف بجميله بقوله: "إن كان أبي قد أتى بي إلى هذه الدنيا، فقد علمني أرسطو فن الحياة فيها." وقد قال في رسالة بعثها لأرسطو: "لقد أسرفت في معرفة الأفضل أكثر من معرفتي عن كيفية توسيع السلطات وبسط النفوذ." ويعتبر ذلك تحية منه لأستاذه أرسطو. إلا أن ذلك الشاب الجامح ابن الملك القوي لم يستطع الاستمرار في دراسة الفلسفة أكثر من عامين، فهجر الفلسفة بعد مقتل أبيه وارتقى العرش ليفتح العالم.

خرج الإسكندر لفتح العالم وترك في المدن اليونانية حكومات موالية له، إلا أن شعوب تلك المدن كانت معادية له. وقد صعب ذلك من مهمته الخارجية. أما أرسطو فقد قام بجولة في الخارج عاد منها في عام ٣٣٤ ق. م. ولم يتردد في مساندة الإسكندر في توحيد المدن اليونانية. وعندما ندرس أعمال أرسطو في تلك الفترة وخلال الاثني عشرة عامًا الأخيرة من حياته، سنعرف أنه اختار طريقًا غير آمن. وذلك لأن أحوال السياسة تتغير في أي لحظة، وهذا يفسر لنا فلسفته السياسية ونهايته المحزنة.

• ٢- أعمال أرسطو:

لم يكن من الصعب على معلم الإسكندر أن يجد تلاميذ في مدينة معادية كأثينا. وقد كان أرسطو في الثالثة والخمسين من عمره عندما أنشأ مدرسته "لوكيون". وقد التف حوله الكثير من الطلاب، مما استدعى وضع ترتيبات لحفظ النظام. وقد وضع الطلاب النظام بأنفسهم واختاروا واحدًا منهم ليشرف على المدرسة كل عشرة أيام. إلا أن نظام المدرسة لم يكن صارمًا. فقد نقلت لنا صور من داخل المدرسة لطلاب يتناولون الطعام مع معلمهم ويشاركونه اللعب في الملعب الرياضي الذي استمدت المدرسة اسمها منه.

لم تكن المدرسة مثل مدرسة أفلاطون تمامًا، حيث تخصصت أكاديمية أفلاطون في الرياضيات والفلسفة السياسية التأملية. بينما مالت مدرسة أرسطو أكثر إلى تدريس علوم الأحياء والعلوم الطبيعية. وقيل إن الإسكندر أمر صيادي القصر بأن يكونوا في خدمة أرسطو، فانتشر ألف منهم في اليونان وآسيا لجمع عينات الحيوانات والنباتات من كل مكان. وقد تمكن بذلك من إنشاء أول حديقة حيوان يعرفها العالم. إلا أن ذلك لم يكن له أثر شديد على علم أرسطو وفلسفته.

ولكن كيف استطاع أرسطو الإنفاق على ذلك؟ يقال إنه كان في ذلك الوقت ذا دخل عال جدًا، كما أن الإسكندر أعطاه ٨٠٠ مثقال من المال وهي تساوي العديد من ملايين الدولارات بحسابات يومنا هذا. كما قال البعض إن الإسكندر طلب من أرسطو إرسال بعثة لكشف منابع النيل ومعرفة أسباب فيضانه كل عام. هذا بالإضافة إلى ما ذكر عن قيام أرسطو بالعمل في إعداد الدساتير والقيام بمهام عظمى، مما يشير إلى العدد الكبير لمساعديه أيضًا. ويعتبر ذلك من أول الأمثلة على تقديم المال الوفير لخدمة العلم في أوروبا.

ولابد لنا أن نعلم أن أرسطو قام بذلك في وقت كان يفتقر إلى المعدات الحديثة. فكان عليه معرفة الوقت بدون ساعة وتقدير درجة الحرارة بدون ترمومتر ومراقبة السماء والسحب والغيوم وتوقع الجو في اليوم التالي بدون مرصد. حيث لم يكن ذلك الزمان يعرف من أدواتنا العادية سوى المسطرة والبوصلة. كما أن التحليل الكيمائي

والمقاييس والأوزان وكذلك قوانين الكهرباء وضغط الهواء والحرارة والاحتراق لم تكن معروفة بعد.

على أن علم الفلك الذي وضعه أرسطو يعتبر أمورًا مضحكة في عالم اليوم لعدم وجود مرصد مناسب. كما أن علم الأحياء ضل طريقه في مدرسة أرسطو لعدم وجود مجهر. وقد تأخرت اليونان كثيرًا في عالم الأجهزة والاختراعات، حيث كانت كل الأعمال اليدوية أعمال محتقرة لا يقوم بها سوى العبيد. وربما فكر بعض المرفهين في بعض الاختراعات التي لم تكن مفيدة لهم ولم تعد عليهم بنفع مادي. ففي حين تقدمت الفلسفة اليونانية وغزت العالم، كان العلم اليوناني لا يزال تائهًا والصناعة اليونانية لا تزال على حالها قبل آلاف السنين. وهذا هو سبب ابتعاد أرسطو عن إجراء التجارب والاختبارات، حيث أن الأدوات اللازمة لإجرائها لم تكن معروفة بعد. وأقصى ما كان يستطيع فعله هو ملاحظة الكون باستمرار. وعلى الرغم من كل تلك المعوقات، نجد أن ما قام به أرسطو وطلابه كان أساسًا لتقدم العلم ونصوص معرفية لمدة ألفي عام.

وقد ألف أرسطو مئات الكتب، ويقول البعض إنها ٤٠٠ كتاب ويقول آخرون إنها ١٠٠٠ كتاب. ولم يتبق من هذه الكتب إلا القليل إلا أنها تعتبر مكتبة كاملة في حد ذاتها. وقد جمع الطلاب أعمال أرسطو الفلسفية تحت اسم "وسائل التفكير الصحيح". كما جمعوا أعماله العلمية في كتب بعناوين: الطبيعيات - في السماء - علم الظواهر الجوية - التاريخ الطبيعي - عن النفس - أجزاء الحيوان .. وغير ذلك من كتب في اللغة والأخلاق والسياسة واللاهوت.

إلا أننا من الممكن أن نجد فيما كتبه أرسطو أخطاء وسخفًا أكثر من أي فيلسوف آخر. ويمكننا أن نجد في نفس الوقت أسلوبًا جميلًا وأعمالًا فنية مركزة وتقديمًا جيدًا. وقد كتب أرسطو محاورات أدبية أيضًا ذاعت في عصره باسم "محاورات أفلاطون". إلا أن هذه المحاورات فقدت مثلما فقدنا كل أعماله العلمية.

وقد يكون ما نشر من كتب نسبت إلى أرسطو من جمع طلابه قد مرت بتدخل منهم لجعل محاضراته بعيدة عن الجفاف والأسلوب العلمي المحض. ويبدو أن أرسطو لم ينشر في حياته أي كتب سوى ما كتبه عن المنطق والبلاغة. ولاختصار ما قيل عن صياغة طلابه للكثير من كتبه يمكننا إيجاز القول بأن كل كتبه كانت بأسلوب واحد

مشترك. وأن ما نحن متأكدون منه أن الكاتب الروحي لكل تلك الكتب التي تحمل اسمه هو أرسطو نفسه.

• ٣- أسس علم المنطق:

أول ما يميز العظيم أرسطو عن سلفه هو ذلك العلم الجديد: "المنطق". وقد كان العقل اليوناني في حالة من الفوضى وعدم الانتظام إلى أن جاء أرسطو بوسيلة لتصحيح الفكر وفحصه. وقد كان كلام أرسطو نفسه يعتريه بعض الخرافات، كما كان أسلوبه الجميل يحجب وجه الحقيقة. وقد خالف أرسطو الأسس التي وضعها بنفسه في كثير من الأحيان، فقد كان لا يزال متأثرًا بالماضي.

والمنطق ببساطة معناه هو ذلك الفن الذي يساعدنا على تصحيح تفكيرنا وأعمالنا. إنه نظام تلجأ إليه كل العلوم والفنون. وبذلك يصبح لا شيء أثقل على الفهم من المنطق ولا شيء أكثر منه أهمية.

وأهم ما أدخله هذا الفن على علم الفلسفة هو القياس، والقياس المنطقي يتكون من ثلاثة أجزاء: مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ونتيجة. وهي نتيجة طبيعية لما ورد في المقدمة الكبرى والمقدمة الصغرى. ومثال ذلك:

* الإنسان حيوان عاقل.

* أرسطو إنسان.

* أرسطو حيوان عاقل.

وأي دارس للرياضيات سيدرك فورًا أن ذلك يشبه القاعدة الرياضية القائلة بأن "الشيئين اللذين يتساوى كل منهما مع شيء آخر يكون أحدهما مساويًا للآخر." فإن كانت كلمة "إنسان" هي الحد المشترك في المقدمتين، فإن الصفتين تنطبقان على الحد الثالث وهو أرسطو أي أنه حيوان وعاقل. حيث نصل إلى النتيجة بإلغاء الحد المشترك (الإنسان) ووصل ما تبقى من المقدمتين.

إلا أن طريقة القياس المنطقي هذه لقيت نقدًا من بعض الفلاسفة المحدثين. ويكمن النقد في أن المقدمة الكبرى تأخذ النقطة المراد إثباتها كأمر مسلم به، لأنه إن لم يكن أرسطو عاقلاً (وليس هناك من يشك في أنه إنسان) فإن القضية التي تقول بأن

"الإنسان حيوان عاقل" لن تكون صحيحة وشاملة. ويرد أرسطو على ذلك بأنه عندما يتوفر في الفرد صفات مميزة لنوعه (أرسطو إنسان) فإن هذا يدل على اشتراكه في صفات أخرى مميزة لنفس النوع وهي "العقل". ويبدو أن ذلك القياس ليس نظامًا آليًا لكشف الحقيقة بقدر ما هو توضيح للفكرة[1].

• ٤- تنظيم العلم:

العلم اليوناني قبل أرسطو:

يقول رينان إن سقراط قدم الفلسفة للعالم، وأرسطو قدم له العلم. وقد كانت الفلسفة موجودة قبل سقراط والعلم موجود قبل أرسطو. إلا أنهما تقدما تقدمًا كبيرًا بعد سقراط وأرسطو. وكل ما تحقق من تقدم في هذين المجالين جاء مبنيًا على ما قدمه هذان الفيلسوفان. وقد كان العلم طفلاً رضيعًا وكبر على يدي أرسطو.

وكانت المحاولات السابقة لأرسطو قد ربطت بين العلم والدين. وقد كانت كل الشعوب التي سبقت اليونان في هذا المجال تفسر كل ظاهرة طبيعية غامضة تفسيرًا دينيًا، فكانوا يعتقدون أن الآلهة[2] موجودة في كل مكان.

وكان اليونانيون في "أيونيا" هم أول من أقدم على تفسير الظواهر الطبيعية الغامضة في هذا الكون. لقد بحثوا في الأسباب الطبيعية التي تؤدي إلى ذلك، كما بحثوا في الفلسفة عن نظرية طبيعية شاملة.

وقد كان طاليس "أبو الفلسفة" فلكيًا، وقد أدهش المحيطين به عندما أخبرهم أن الشمس والنجوم ما هي إلا كرات من نار ولا يجب أن يعتبروها آلهة ولا أن يعبدوها. ثم اعتقد تلميذه "اكسمندر" أن العالم بدأ بكتلة متشابهة وأن الأشياء كلها مستمدة

---

(١) - على الرغم مما وجه من نقد للقياس المنطقي إلا أن ما وضعه أرسطو كان أساسًا لعلم المنطق حتى الآن. وذلك بالرغم من عدم اعتراف الكثير من أصحاب التفكير العلمي به، فهم لا يثقون إلا في التفكير العلمي التجريبي. (المترجم)

(٢) - بل إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. قال تعالى:﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢٢ - سورة الأنبياء). والمثنى المقصود هنا هما السماء والأرض. أما الفساد فهو اختلال النظام وانتفاء النفع من الأشياء. ففساد السماء والأرض هو أن تصيرا غير صالحتين ولا متسقتي النظام بأن يبطل الانتفاع بما فيهما. فمن صلاح السماء نظام كواكبها، وانضباط مواقيت طلوعها وغروبها، ونظام النور والظلام. ومن صلاح الأرض مهدها للسير، وإنباتها الشجر والزرع ، واشتمالها على المرعى والحجارة والمعادن والأخشاب، وفساد كل ذلك ببطلان نظامه الصالح . (المترجم)

من عنصر واحد نشأت منه جميع الأشياء. كما كان يعتقد أن الأشياء تتوازن في الفضاء بسبب توازن داخلي وأن الحياة بدأت في البحر وامتدت إلى البر بعد جفاف الماء في بعض المناطق. وأن بعض الحيوانات المائية تطورت وأصبحت قادرة على التنفس خارج الماء لهذا السبب. فأصبحت بداية للعديد من الكائنات التي عاشت على الأرض بعد ذلك.

كما وصف "أناكسمانس" (عام ٤٥٠ ق. م.) الأشكال الثلاثة للمادة (الصلبة والسائلة والغازية). وقال إن الزلازل تحدث بسبب تجمد التربة ذات الأصل المرن. وأن الحياة والروح شيء واحد. كما قدم "أناكسجورس" (٥٠٠-٤٢٨ ق.م) تفسيرًا صحيحًا لكسوف الشمس وخسوف القمر. واكتشف طريقة التنفس في النبات والأسماك.

أما "هيرقليتس" (٥٣٠-٤٧٠ ق.م) فقد ترك الحياة الرغدة والمال وعاش في فقر الدراسة في المعبد. وقد حول اهتمام العلم من الفلك إلى الاهتمام بالأرض. وهو يرى أن كل شيء يجري ويتدفق ويتغير. وأن أكثر المواد سكونًا بها حركة غير منظورة. كما رأى أن تاريخ الكون يجري في دورة متكررة تبدأ وتنتهي في نار (وهذا أحد مصادر المبدأ الرواقي[1] المسيحي عن اليوم الآخر وجهنم)، كما كان يرى أن الشيء يوجد ويفنى.

وهذا موجز سريع لحالة العلم اليوناني قبل أرسطو، ومن الممكن التسامح مع أفكارها وعباراتها الفجة إن وضعنا في الاعتبار قلة الإمكانيات والأجهزة والمعدات المتاحة في ذلك العصر. وقد حال جمود الصناعة وركودها دون التطور أو الرواج والتقدم في هذا المجال. وقد أدى تعقد الحياة السياسية إلى ابتعاد سقراط وأفلاطون وغيرهما عن البحث في الطبيعة والأحياء والبحث في السياسة والأخلاق.

ومن فضائل أرسطو أنه ربط ما بين الفيزياء والأخلاق، وهما يعودان إلى ما قبل

---

(١) - المدرسة الرواقية: الرواقيون هم دعاة مدرسة فلسفية انتشرت في إطار الثقافة اليونانية في القرن الرابع قبل الميلاد، تحت تأثير الأفكار التي تدعو إلى المواطنة العالمية، وتأثير الأفكار ذات النزعة الفردية، وتأثير التطورات التقنية التي فرضها التوسع في المعرفة الرياضية. وكان زينون وكريسيبوس أكبر الدعاة البارزين للمدرسة في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وقد اعتقد الرواقيون أن مشاعر الخوف والحسد، وكذلك مشاعر الحب الملتهب والجنس المتقد، هي بذاتها، أو بما ينتج عنها، أحكام خاطئة، وأن الإنسان الحكيم، أو الشخص الذي حقق كمالاً أخلاقيًا وفكريًا، يرفض الخضوع لهذه المشاعر. (المترجم)

معلمه أفلاطون. حيث استمسك بالعلم والبحث العلمي القائم على التجريب، إلا أنه كان التجريب الممكن في ذلك الوقت، فلم تكن هناك أدوات ومعدات متاحة ولا معامل مجهزة، وكان البحث العلمي يعتمد على بعض اجتهادات العلماء وما يقومون به من أعمال أو على مجرد مراقبة الطبيعة والاكتشاف.

أرسطو كعالم في التاريخ الطبيعي:

لو بدأنا بالحديث عن كتاب أرسطو في الفيزياء، سيخيب أملنا. لأن هذا الكتاب الصغير في الحقيقة لم يتناول سوى بعض التحليلات الغامضة حول المادة والفراغ والزمان واللانهائية والعلة وغيرها من موضوعات أقرب إلى الميتافيزيقا وليس إلى التاريخ الطبيعي (الفيزياء). ومن أهم ما جاء في كتابه هذا هو الهجوم على "ديمقريطس" حيث اعتقد أن كل شيء مكون من ذرات، والذرات يفصلها عن بعضها البعض فراغات. وقد أنكر أرسطو وجود الفراغ، وذلك لأن الأجسام تسقط في الفراغ بسرعة واحدة. وعلى ذلك لم يقدم أرسطو جديدًا في هذا العلم.

أما علم الفلك، فقد قدم له أرسطو إسهامًا بسيطًا، حيث رفض ما قاله "فيثاغورث" من أن الشمس هي مركز الكون وقال إن الأرض هي مركز الكون، وهذا أمر خاطئ بالطبع. إلا أن ما كتبه في كتابه الصغير عن الظواهر الجوية مليء بالمعلومات الجيدة. حيث قال إن العالم له دورة ثابتة، حيث يتبخر الماء بسبب أشعة الشمس. وأنه سيأتي وقت تتبخر فيه البحار وتجف الأنهار والينابيع ويتحول المحيط الواسع إلى صخور جرداء. ولم ينس الحديث عن مصر والنيل ورواسبه التي يجرفها معه عبر آلاف السنين. كما توقع ظهور قارات ومحيطات جديدة واختفاء قارات ومحيطات قديمة. وقد تحدث هذه التغيرات فجأة وتقضي على كل ما توصلت إليه المدنية من تقدم. وتبدأ دورة حياة الإنسان من جديد.

أسس علم الأحياء:

عندما تجول أرسطو في حديقة الحيوان التي أقامها في أثينا، اقتنع بأنه من الممكن أن يستمر تنوع الحياة إلى ما لا نهاية. وأن كل حلقة من حلقات هذا التنوع تختلف عن باقي الحلقات. ففي كل نواحي الحياة يتم التدرج من البسيط إلى الأكثر تعقيدًا. ومن الصعب الفصل بين تلك الحلقات، فالانتقال من حالة إلى أخرى يذيب ما بينهما

من حدود. كما أن هناك الكثير من الأنواع الموجودة في الحياة لكنها لا تصنف كنبات أو حيوان. وهناك أنواع أخرى شديدة الصغر والتشابه بحيث لا يمكن التمييز بينها[١].

ومع كل ذلك التنوع والاختلاف، يمكن أن يحدث التوقف في أي وقت. وقد تطورت الحياة باستمرار وزادت تعقيدًا وقوة. كما تقدم عقل الإنسان وذكاؤه مع تقدم كل ما يحدث من حوله. ومع مرور الوقت اتضح نظام الحياة وتحرك عقل الإنسان ليتحكم في البيئة المحيطة به.

لكن من المدهش أن الإنسان لم يتوصل إلى نظرية التطور رغم كل ملاحظاته تلك. كما أنه رفض نظرية "البقاء للأصلح" التي وضعها "أمباذقليس". وكذلك رفض ما قاله "أناكسجوراس" من أن الإنسان أصبح ذكيًا بعدما استفاد من يديه في كثير من الأعمال اليدوية. وذلك لأنه (أرسطو) يرى أن العكس هو الصحيح، أي أن الإنسان استخدم يديه لأنه أصبح ذكيًا[٢].

لكن أرسطو الذي أوجد علم الأحياء وقع في كثير من الأخطاء. وهذا أمر متوقع بطبيعة الحال. ومن هذه الأخطاء أنه اعتقد أن دور الذكر في التناسل هو إحياء وتقوية الجنين فقط[٣]، ولم يخطر بباله ما أصبح الآن معروفًا من تخصيب البويضة ونقل جينات الوالد للجنين. ومن بين معتقداته الخاطئة أيضًا أن الدماغ عضو لتبريد الدماء وأن للرجل ثمانية أضلاع فقط في كل جهة وللمرأة عدد من الأسنان أقل من عدد أسنان الرجل. وعلى الرغم من ذلك فإن ما أحرزه من تقدم في ذلك العلم أكثر من أي ممن جاءوا قبله أو بعده.

وقال أرسطو أيضًا إن نفس الرضيع يصعب تمييزها عن النفس في الحيوان، وأن الغذاء يحدد طريقة الحياة. كما قال بأن بعض الوحوش تعيش في جماعات وبعضها الآخر يعيش منعزلاً، وهذا يعتمد على الوضع الأفضل لها في الحصول على الطعام. كما

---

(١) - ربما يكون السبب الأول الذي جعل أرسطو يضع علم الأحياء هو حديقة الحيوانات التي أنشأها، وربما يكون لما قام به من متابعة وتدبر لما فيها من كائنات وحيوانات أكبر الأثر على وضعه لأسس هذا العلم. وما ينطبق على الحيوانات والكائنات الحية يمكن تطبيقه أو ملاحظته أو مقارنته بالإنسان بسهولة. (المترجم)

(٢) - خلاف تقليدي كثيرًا ما يحدث بين الفلاسفة والعلماء، حيث يكون السؤال: أيهما يحدث أولًا؟ أيهما السبب والآخر هو النتيجة؟ لكن الحوار بهذه الطريقة لا يجدي، المهم أن أمرًا ما حدث وهو ما نحتاج إليه. (المترجم)

(٣) - كثير من بسطاء عصرنا الحالي الذين لم يتلقوا قدرًا كافيًا من التعليم أو لم يذهبوا إلى مدرسة قط يعتقدون ذلك. (المترجم)

أن أرسطو أوجد علم الأجنة أيضًا. فكان أول من تحدث في ذلك العلم. وعلى الرغم من الأخطاء التي سادت أعماله في علم الأحياء، فإن ما قام به يمثل أعظم ما قام به فرد واحد في عصره.

• ٥- الميتافيزيقا وطبيعة الله:

نشأت الميتافيزيقا[١] عند أرسطو من علم الأحياء الخاص به. حيث كل شيء في هذا العالم يحركه باعث داخلي حتى يصبح أكبر مما كان. أي أن الرجل هو ذلك الذي كان طفلاً قبل العديد من الأعوام، والطفل هو الجنين بعد أن كبُر .. وهكذا. ويمكننا أن نتراجع هكذا إلى أن نصل إلى المادة عديمة الصورة مطلقًا. لكن المادة عديمة الصورة تعتبر لا شي، لأن لكل شيء صورة. فالصورة هي الحقيقة التامة للمادة، فالصورة ليست الشكل فقط، لكنها تعكس ما في المادة أيضًا من قوى كامنة.

وكل شيء في هذا العالم يتحرك بطريقة طبيعية من أجل تحقيق هدف معين. لكن ما يقع من أخطاء يؤدي إلى اختلال الدورة الطبيعية للشيء. وكل شيء يكبر بحسب طبيعته وتركيبه، فبيضة الدجاجة لا تفقس أوزة صغيرة بل كتكوتًا. وأيضًا بذور نبات ما لا تنتج سوى ذلك النبات فقط وليس نباتًا غيره.

وأرسطو يرى أن ذلك الانتظام يخضع إلى تصميم داخلي للشيء أو الكائن نفسه إضافة إلى وجود إرادة إلهية تدعم بقوة عملية الأسباب الطبيعية المنطقية التي أشرنا إليها الآن.

ولذلك فهناك إله واحد يدير هذا الكون، وهو ليس بسيطًا كما يتخيله بعض السذج من البشر في صورة إنسان خارق. وقد تناول أرسطو هذا الموضوع من خلال مشكلة الحركة القديمة. حيث يرفض أن يكون ما في العالم من حركة بلا بداية. كما قد تكون المادة أبدية، لكن كيف بدأت وتشكلت حتى تملأ هذا الكون الواسع من حولنا، كما أن أشكال المادة لا نهاية لها.

ويرى أرسطو أننا يجب أن نقوي إيماننا بالله، فهو المحرك الأكبر لكل ما حولنا، كما

---

(١) - علم يتناول الأشياء التي لا تخضع لقوانين الطبيعة، أو يمكن التعبير عنها مجازيًا بأنها الأشياء التي تتجاوز حدود الطبيعة أو ما وراء الطبيعة. (المترجم)

لا يجب أن يكون له شبيهًا. فهو منزه عن التأنيث والتذكير (جل وعلا) ولا يتغير ولا يتأثر. وهو تام وأبدي. كما أن الله ليس بخالق لهذا العالم فقط بل إنه محركه أيضًا. وهذه الحركة ليست مجرد حركة ميكانيكية بل حركة كلية لجميع ما يحدث في العالم.

ولكن كما اعتدنا مع أرسطو من تناقض مع نفسه، يصور الله جل وعلا على أنه روحًا غامضة (حاشا لله). كما أن كمال الله من وجهة نظره يتعارض مع أن تكون له رغبة في أي شيء.

كما أن هذا الإله الذي يتصوره أرسطو فقير جدًا، وغير قادر على فعل أي شيء. إنه إله بالاسم وليس بالفعل[1]!!

ولا غرابة إذن أن يحب البريطانيون أرسطو، لأن مفهوم الإله عنده مثل مفهوم الملك عندهم، فهو لا يفعل أي شيء. وهذه النظرة القاصرة للإله ناتجة في رأيي عن حب أرسطو الشديد للتأمل والتفكير، وهو حب ضحى من أجله بمفهومه عن الإله، إنه إله منعزل ومبتعد عن الصراع الدائر بين عبيده، فكيف يكون الإله كذلك !!!

• ٦- علم النفس وطبيعة الفن:

ويستمر الغموض والتذبذب عند أرسطو في علم النفس أيضًا، فهو يتحدث أحيانًا كرجل جبري، فيقول بأننا لا نستطيع أن نغير من أنفسنا، ولا أن نكون خلافًا لما نحن عليه. لكنه يقول ما هو ضد الجبرية: "إننا نستطيع أن نختار ما سنكون، وذلك من خلال اختيار البيئة التي تؤثر فينا."

ثم ننتقل إلى نظريته عن النفس، وقد بدأها بتحديد واضح. وهو أن النفس لازمة لكل جسم حي. وهي مجموع قواه وتفاعلاته. وفي النبات تنحصر النفس في التغذية. أما قوة النفس في الحيوان فهي قوة حساسة ومحركة. كما أن النفس مثل كل قوى الجسد، تموت معه وتفنى معه. لكن هناك شيء ما يبقى من النفس، وهو العقل أو الفكرة المجردة التي يمكن أن تُخلّد. وخلود الفكر جزء من خلود النفس. وهنا أنقذ

---

(١) - الله سبحانه وتعالى موجود في كل زمان ومكان وهو لا يقارن بالإنسان أو أي من مخلوقاته، كما أن له إرادة لا تقارن بإرادة البشر أو أي من المخلوقات. يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (البقرة - ١١٧). (المترجم)

أرسطو نفسه من أن يلقى نفس مصير الإعدام بشرب السم إن جاهر بفناء النفس صراحة.

أما عن الفن والجمال، فيرى أرسطو أن الفن محاكاة للطبيعة وتقليد لها. والإنسان يجد متعة في التقليد. ولكن بالرغم من ذلك فإننا لا نقدم المظاهر الخارجية في الفن، بل نركز على الجوهر. فالحقيقة تكمن في الجوهر الأصيل الداخلي وليس في المظهر الخارجي المصطنع والذي قد يشوبه التكلف[١].

وأعظم الفنون هي ما يسر العقل والمشاعر في آن واحد، وهذا هو أعلى مراتب السرور التي يمكن أن يمر بها الإنسان. كما يجب أن يكون العمل الفني مطهرًا ومنقيًا لانفعالات الإنسان[٢].

لكن أرسطو نسي ما قد يحدث في بعض الفنون المسرحية مثلاً من تصادم للمبادئ والشخصيات، وما قد يدور بينها من صراعات. إلا أن اقتراحه لنظرية تطهير الفن لنفوس البشر سيظل باق على مر الزمان، فهو يشير أيضًا إلى قوة تأثير الفنون في الناس[٣]، كما أن الفكرة تشهد بمقدرة أرسطو على التفكير في كثير من الميادين وعلى تزيين فكره لكل ما يتناوله.

• ٧- الأخلاق وطبيعة السعادة:

عندما نضج فكر أرسطو والتف الشباب حوله طلبًا للعلم، بدأ عقله يتحول إلى التفكير العلمي والبحث في المشكلات الأخلاقية الأكثر غموضًا. وكان السؤال الأساسي

---

(١) - هذا مبدأ سام ونبيل. ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الحديث التالي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ.» (متفق عليه) (المترجم)

(٢) - أين أنت يا أرسطو من الأعمال الفنية من رقص وغناء وتمثيل وموسيقى في عالم اليوم بعد مرور أكثر من ٢١ قرنًا من الزمان، أغلبها لا تهدف إلا الإثارة والحض على الرذائل والمجون ونشر الفسق والعادات القبيحة باسم المدنية الحديثة والتحضر. وهذا سائد في أغلب دول العالم وليس في الدول النامية أو الدول المتخلفة فقط. (المترجم)

(٣) - وهذا إدراك مبكر أيضًا من أرسطو للأثر الذي تتركه الفنون ووسائل الاتصال والتواصل في عامة الناس. ففي عصرنا الحالي يدعم كثير من الناس رأيه بقوله (لقد شاهدت ذلك على شاشة التلفاز .. لقد استمعت إلى ذلك بنفسي في المذياع ... قرأت ذلك على شبكة الإنترنت ... جاءتني معلومة مؤكدة على «فيس بوك» ... كما لو كانت وسائل الإعلام والتواصل لا يأتيها الباطل ولا تشوبها شائبة. (المترجم)

الذي يواجهه يدور حول الحياة الفاضلة: ما هي؟ وما هي أعظم خيرات الحياة؟ وما هي الفضيلة؟ وكيف يمكننا تحقيق السعادة؟

وكان أرسطو واقعيًا وبسيطًا، وقد أدى تفكيره العلمي إلى ابتعاده عن التبشير بمثل عليا فوق مستوى البشر أو نصائح فارغة عن تحقيق الكمال. ويرى أرسطو أن هدف الحياة ليس الخير فقط، بل السعادة أيضًا. فنحن نحب السعادة لذاتها. واختيارنا للخير والشرف والسرور وغيرها من مثل ليس لذاتها ولكن لأنها طريق يؤدي إلى السعادة.

وعلى الرغم من أن أعمال الخير والعلاقات الطيبة مع الناس ضرورية للشعور بالسعادة، فإن جوهر السعادة يظل في داخلنا. كما أن المنصب السياسي لا يحقق السعادة لأننا لا نفعل ما نريده نحن بل نسير وفقًا لنزوات الشعب ورغباته، ولن تجد ما هو أشد تقلبًا من عامة الناس. إذن لابد أن تكون السعادة في لذة العقل، ولا يجب أن نثق بوجود السعادة إلا إذا كانت بسبب البحث عن الحقيقة أو الوصول إليها. واستخدام العقل ليس هدفًا في حد ذاته. بل هو أيضًا طريق للسعادة.

ويرى أرسطو أن الإنسان المثالي هو من لا يعرض نفسه للمخاطر بلا ضرورة ملحة. كما أنه على استعداد للتضحية بنفسه عند وقوع الأزمات الكبرى. وهو من يدرك أن الحياة لا قيمة لها في الظروف الصعبة التي تستدعي الإقدام. وهو محب لمساعدة الناس لأن في ذلك دليل على سمو ورفعة. أما تلقي المساعدات من الآخرين فهو دليل مذلة وتبعية.

كما أن الإنسان المثالي لا يشترك في المظاهر العامة ولا يتفاخر ولا يتباهى أمام الناس. وهو صريح في كل شيء، سواء كان يكرهه أو يميل إليه ويحبه. كما أنه لا يتأثر بمدح وإطراء الناس له، ولا يساير الآخرين دون تفكير لأن ذلك من صفات العبيد.

والإنسان المثالي لا يحقد على الآخرين ولا يشعر بأي ضغينة ضدهم. وينسى الإساءة ويتسامح مع من يسيء إليه. وهو أيضًا لا يكثر من الحديث ولا يهتم بمدح الناس له أو ذمهم لغيره. كما أنه لا يتكلم بسوء عن الناس وإن كانوا أعداء له. وهو شجاع وعميق الصوت وخفيف الخطى وحريص ومهتم بالآخرين. وهو أيضًا يتحمل مصائب الحياة بصبر وجلد. وإن كان قائدًا عسكريًا، فهو يجيد التخطيط وينظم صفوف جنده في الحرب.

والإنسان المثالي صديق لنفسه يسعد بالوحدة، أما الجاهل عديم الفضائل فهو عدو نفسه، مجرد من الفضيلة ويخشى الوحدة. وهذا هو وصف أرسطو الكامل للإنسان المثالي.

• ٨- السياسة

الشيوعية ومذهب المحافظين:

كان من الطبيعي أن تؤدي الأخلاق الأرستقراطية التي تحلى بها أرسطو إلى فلسفة سياسية شديدة الأرستقراطية. فليس من المتوقع أن يكون معلم الإمبراطور وزوج الأميرة على روابط قوية مع عامة الناس أو حتى مع طبقة التجار البرجوازية. وذلك بالإضافة إلى أن أرسطو كان محافظًا بسبب الكوارث والاضطرابات التي وقعت نتيجة للديموقراطية التي كانت في أثينا.

وكان يتوق إلى نظام مثالي من الأمن والسلام، وكان لا يرى أن الوقت مناسب للتطرف والاندفاع السياسي. ويرى أيضًا أن الاستخفاف بتغيير القوانين عادة سيئة تجعل فائدتها قليلة، وأنه من الأجدر بمن يفكر في ذلك أن يقوّم الحاكم ويواجه عيوب ما أصدر من قوانين. كما يجب على الجميع ألا يستخفوا بخبرات الأجيال الماضية، حيث أنه مما لا شك فيه أن "هذه الأشياء" الجديدة لم تكن تظل خافية على الناس أعوامًا طويلة لو أنها صالحة ومفيدة.

وكان أرسطو يقصد بـ "هذه الأشياء" جمهورية أفلاطون الشيوعية. حيث حارب واقعيته في الكليات ومثاليته في الحكومات. فقد وجد الكثير من النقاط السوداء في اللوحة التي رسمها الأستاذ. ولم يستسغ أرسطو فكرة المعسكرات التي اقترح أفلاطون فرضها على جمهوريته. وكذلك رفض فكرة إبعاد الأطفال عن أسرهم. حيث من الأفضل أن يشعر الطفل بعمه وخاله وأقاربه الحقيقيين على أن يكون الأطفال في رعاية آباء غير آبائهم الأصليين. كما أن امتلاك الأشياء تبعث في نفسك الاهتمام بها، وهذا أمر مستحيل في دولة أفلاطون النموذجية.

وربما حدث في الماضي البعيد وجود للدولة الشيوعية، حيث كانت المراعي والزراعة الحرفة الوحيدة في الحياة. لكن في الدولة التي تتعدد فيها الأعمال وأبواب الرزق مثلما كان الحال في اليونان في وقت أرسطو، لابد أن تنهار الشيوعية وتسقط.

وذلك لأنها لا تقدم أي حافز أو دافع لبذل المزيد من الجهد، لذلك فالملكية أمر ضروري وحافز مهم في مجالات الصناعة والزراعة.

فعندما يمتلك الفرد كل شيء، لن يهتم أحد بأي شيء. واشتراك الكثيرين في شيء واحد يقلل اهتمام كل منهم به. وكلما زاد عدد الملاك قل الاهتمام. فكل إنسان يفكر في مصلحته الشخصية وما تملك يداه، ولا يكاد يفكر في المصلحة العامة إلا قليلاً. كما أن الحياة في معسكرات مشتركة قد تكون صعبة ومملة. فالأصدقاء يملون إن طال سفرهم معًا وقد يتشاجرون ويختلفون على أبسط الأشياء.

ولا شك أن الدولة المثالية تجذب اهتمام الناس وأسماعهم. كما أنها تجعل الجميع أصدقاء خاصة وإن سمعوا من يبشرهم بالدولة المثالية ويستنكر شرور العالم وما فيه من مفاسد. إلا أنه يدعى أن الملكية الخاصة هي أصل لكل تلك الشرور. في حين أن تلك الشرور والمفاسد تنتج عن طبيعة بشرية سيئة ميالة إلى الشر. لذلك فالسياسة لا تصنع الناس بل ينبغي أن تعالج طبيعتهم.

وطبيعة الإنسان العادي تقترب من طبيعة الوحش، كما أن معظم الناس أغبياء وكسالى. ومساعدة الحكومة لهم عمل غير مجد بالمرة يشبه من يصب الماء في وعاء مثقوب. لذلك يجب أن تتم السيطرة على مثل هؤلاء وتوجيههم للعمل الصناعي بموافقتهم أن كان ذلك ممكنًا، أو رغمًا عنهم إذا استدعت الضرورة ذلك. وقد ولد الناس ليكونوا حكامًا أو محكومين. فهناك من أعدته الطبيعة ليكون حاكمًا، أما من لا يجيد سوى العمل العضلي بالاعتماد على جسده فقط فيصبح من العبيد. والعبيد مثل الآلات، لابد من وجود من يشغلها. ولذلك فلابد من وجود سادة يشغلون العبيد ويوجهونهم. هذا ما يراه أرسطو، ويبدو أنه كان يحلم بثورة صناعية تتناسب مع إمكانيات عصره.

إلا أن هذه الفلسفة توضح احتقار اليونانيين للأعمال اليدوية. وقد نظر أرسطو إلى الأعمال اليدوية نفس النظرة المتعالية، حيث اعتبرها أعمال تناسب صغار العقول أو الذين لا عقول لهم، إي أنها صالحة للعبيد فقط. كما رأى أن العمل اليدوي يؤدي إلى بلادة والعقل وفساده، ولا مكان فيه للنشاط السياسي.

الزواج والتعليم:

والمرأة بالنسبة للرجل كالعبد بالنسبة للسيد، وكالعمل اليدوي مقارنة بالعمل العقلي، أو مثل البربري مقارنة باليوناني. كما أن الرجل متفوق بطبيعته والمرأة أقل منه بطبيعتها. والمرأة أيضًا قليلة الإرادة وعاجزة، لذلك فأفضل مكان لها هو بيت الزوجية. وإن كان لها سيادة في البيت، فللزوج سيادة خارجه. ولا يجب أن تتساوى النساء مع الرجال كما هو الحال في جمهورية أفلاطون، ولابد من وضوح الفروق بينهما. ويرى سقراط أن شجاعة الرجل في القيادة وشجاعة المرأة في الطاعة.

ويبدو أن أرسطو شك في إمكانية تحقيق تلك النظرة التي تستعبد المرأة، لذلك فقد نصح الرجل بتأجيل سن الزواج إلى أن يبلغ السابعة والثلاثين من العمر. وأن يتزوج ممن بلغت العشرين من عمرها. وهو يعتقد أن هذا الفارق في السن بين الزوج والزوجة مناسب حيث سيفقدان القوة التناسلية والعاطفة في نفس الوقت تقريبًا. وذلك لأنه إن كان الرجل قادرًا على الإنجاب والمرأة عاجزة عن الحمل يؤدي ذلك إلى خلاف بينهما. أي أنه جمع بين الرجل والمرأة بالزواج في السن المناسب للحمل، ولم يؤيد الزواج المبكر لما له من أثر سلبي على الأطفال. كما أن النساء يملن إلى الطيش واللهو والتقلب إن تزوجن وهن في سن صغيرة. ويجب أن تحدد الحكومة سن الزواج. كما لها أن تتدخل وتحدد الأوقات المناسبة للإنجاب. وإن كان عدد السكان يتزايد بسرعة شديدة يحق للحكومة تشريع الإجهاض وليس وأد الأطفال. كما يجب أن تسيطر الدولة على التعليم أيضًا.

ويجب أن يكون التعليم تحت سيطرة الدولة أيضًا، فهو أهم ما يساعد على الحفاظ على الدستور. حيث يتم تكييف التعليم مع شكل الحكومة. حيث لابد للمواطن أن يتواءم مع شكل الحكومة التي يعيش معها. ومن خلال التعليم يمكننا أن نحول اتجاهات عامة الناس من الصناعة والتجارة إلى الزراعة. كما يمكن تدريب الناس على الحفاظ على ملكيتهم الخاصة بالرغم من إمكانية استفادة الجميع منها.

الطاعة:

ولابد للمواطن من طاعة الأوامر، لأن من لا يطيع الأوامر لا يصلح أن يكون قائدًا فيما بعد. لذا فمن صفات المواطن الصالح أن يكون مطيعًا وقادرًا على القيادة في

نفس الوقت. والمدارس الحكومية الموحدة هي القادرة على تحقيق ذلك لجميع الطلاب على اختلاف أجناسهم وسلالاتهم. وينبغي أن يعرف الجميع جيدًا ما تقدمه إليهم الدولة من الخدمات والأمن. وذلك من خلال نظام اجتماعي جيد وحرية يكفلها القانون.

فالإنسان يعتبر أفضل المخلوقات إن تم تعليمه وتدريبه تدريبًا جيدًا. لكنه أسوأها إن تُرك وشأنه دون رعاية من أحد. لذلك فإن لم يتسم بالفضيلة، يكون أشد من الحيوان وحشية وشراسة وشراهة وشهوة. وبسبب مقدرة الإنسان على الكلام والتعامل مع الآخرين تمكن من إقامة المجتمعات. كما تمكن من وضع نظام للمجتمع، ثم مدينة ثم دولة. وقد وفرت له هذه الحياة المدنية العديد من فرص العيش الكريمة التي لا يمكن أن يصل أحد إليها لو عاش الناس في عزلة مقفرة.

الثورة:

ولكل ذلك، فإن الثورة تعتبر تهورًا وطيشًا. حيث من الممكن أن تحقق بعض الفوائد، لكنها تتسبب في الكثير من الشرور. وأشد هذه الشرور ضررًا هو إشاعة الفوضى وتفكك النظام الاجتماعي[1]، والاستقرار والتماسك الاجتماعي ضرورات يقوم عليها أي نظام سياسي.

قد يرحب الشعب بالنتائج الفورية التي تُحدثها الثورة، وقد يتمكن من عدها. إلا أن النتائج غير المباشرة لا تحصى ولا تُعد. وفي كثير من الأوقات تتسبب في وقوع الكوارث.

فتغيير العادات ليس أمرًا سهلاً كتغيير القوانين. كما أن الدستور الذي يكتب له البقاء طويلاً هو ذلك الدستور الذي ترضى عنه كل طوائف الشعب وترغب في المحافظة عليه. لذلك فعلى الحاكم الذي يريد تجنب الثورة عليه أن يمنع انتشار الفقر وانتشار الثروة الزائد عن الحد. كما أن عليه أن يشجع استعمار دول أخرى كوسيلة لاستيعاب تزايد السكان في بلاده (مثلما فعل البريطانيون في القرن التاسع عشر

(١) - لم يوضح لنا أرسطو أسباب إشاعة الفوضى وتفكك النظام الاجتماعي، فالثورة بالطبع ليست هي السبب. السبب واضح وهو سوء فهم كثير من الناس لكلمة «ثورة» وانتهازهم لفرصة وجود حراك اجتماعي كبير فيسعون في الأرض فسادًا. وأذكر أنني كنت استطلع آراء البسطاء في مصر عن معنى كلمة ثورة في عام ٢٠١١م، فيرد أكثرهم: «يعني كل واحد يفعل ما يحلو له.» (المترجم)

وبداية القرن العشرين). وعليه أيضًا أن يتدين ويشجع شعبه على التدين. لأن الناس إن رأوا الحاكم متدينًا، يقل خوفهم من ترقب ظلمه لهم، ويقل تمردهم عليه وتدبيرهم للتخلص منه، وذلك لاعتقادهم بتأييد الله له.

الديموقراطية والأرستقراطية:

بفضل ما تم ذكره من نظم دينية وتعليمية واجتماعية، يصبح أي نوع من أنواع الحكم التقليدي صالحًا ومحققًا للهدف المرجو منه. فجميع أنواع الحكومات تحمل في طياتها الخير والشر. إلا أن الحكومة المثالية تعني تركيز كل السلطات السياسية في يدي شخص واحد فقط، لأن تعدد الرؤساء أو المسئولين أمر سيئ. لذلك فوجود حاكم واحد يكون القانون أفضل أدواته -وليس قيدًا يحد من تصرفه- هو أفضل الاختيارات.

ومن الناحية العملية، فالحكم الملكي هو أسوأ أنواع الحكم، حيث لا تتحالف فيه الفضيلة مع القوة. وأفضل نظام عملي للحكم هو الحكم الأرستقراطي. والحكم الأرستقراطي يعني حكم قلة من المثقفين وأصحاب المؤهلات والقدرات. ولأن الحكم أمر معقد جدًا، فلا يجب ترك مصير القضايا الكبرى في أيدي عدد كبير من الناس بينما يتناول رجال العلم وأصحاب القدرات قضايا أقل أهمية. كما يجب أن يحكم أهل كل مهنة وصنعة على قضاياها، فالطبيب لا يستطيع محاسبته على عمله إلا طبيب مثله أكثر منه خبرة وقدرة. لذلك لا يجب اعتماد أسلوب انتخاب القضاة للشعب.

أما صعوبة النظام الأرستقراطي الوراثي فهي أنه لا يعتمد على نظام اقتصادي قوي. وذلك لأنه مع مرور الوقت سيصبح المنصب السياسي لمن يستطيع أن يدفع أكثر. ومن المؤسف أن تباع المناصب الكبرى وتشترى. ومن يسمح بذلك يجعل للثروة أهمية أكبر من القدرات والمهارات المطلوبة للمناصب العليا. وسيتهافت المواطنون على اكتناز الأموال من أجل شراء المناصب والألقاب. وهذا يجرد الدولة من المعنى الحقيقي للأرستقراطية.

أما الديموقراطية فتأتي عادة بسبب ثورة على حكومة الأغنياء. فحب اكتناز الأموال وكسب المزيد منها يقلل عدد المسئولين بالدولة، ويمكن المواطنين من التخلص منهم وإقامة حكومة ديموقراطية. وهذا النوع من حكم الفقراء له بعض الفوائد. حيث أن من يصل إلى الحكم في تلك الحالة أقل كفاءة وقدرة على الحكم، إلا أنهم كأفراد

أفضل من أصحاب المعرفة والخبرات. فساكن البيت العالم بما فيه من مشكلات ومزايا أقدر على الحكم عليه من البناء الذي قام ببنائه.

كما أن الضيف أكثر قدرة على الحكم على الوليمة أكثر من الطباخ، والكثرة أكثر عُرضة للفساد من القلة. مثلما أن الماء الكثير أكثر عرضة للفساد من الماء القليل.

ومع ذلك فالديمقراطية أقل شأنًا من الأرستقراطية لأنها تقوم على أساس زائف وهو المساواة. حيث تقوم الديمقراطية على أن من يتساوون في حق واحد (مثل المساواة أمام القانون مثلاً) متساوون في جميع الحقوق الأخرى. لذلك فالناس المتساوون في الحرية يطالبون بالمساواة في كل شيء، ونتيجة ذلك هي التضحية بالكفاءات والقدرات من أجل رغبات الجماهير متقلبة الأهواء والتي يمكن خداعها بسرعة. لذلك فما نحن بحاجة إليه هو مزيج من الديموقراطية والأرستقراطية.

وهذا التمازج الحميد بين الأرستقراطية والديموقراطية يتوفر في الحكومة الدستورية. وهي ليست أفضل حكومة على الإطلاق لأن حكومة المتعلمين الأرستقراطية أفضل منها، إلا أن الحكومة الدستورية هي أفضل حكومة يمكن تحقيقها. وعلينا أن نبحث عن أفضل دستور وأفضل طريقة حياة، بدلاً من أن نسعى إلى تحقيق دولة مثالية لا توجد إلا في عالم الأماني والخيال. ومن الأفضل أن نفكر في نوع من الحياة يناسب أكثر أفراد الشعب وفي حكومة تستطيع الدولة إيجادها والاستفادة منها. ولابد أن نعمل على أن تنال تلك الحكومة تأييد أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب، وأن يكون مؤيدوها أكثر من معارضيها. وهذا لا يتحقق بكثرة العدد والمال ولا بالقوة العسكرية، بل باجتماع كل تلك الأمور معًا.

وهذا يعيدنا إلى الوسطية الرابحة مرة أخرى وهي "الحكومة الدستورية"، فهي حال وسط بين الديموقراطية والأرستقراطية. وبذلك سيقوم الخبراء بواجباتهم، وستكون المناصب العليا من حق أفضل الناس استعدادًا لها وهم أصحاب القدرات والخبرات.

• ٩- نقـــد:

ما الذي يمكننا قوله عن فلسفة أرسطو؟ من الصعب أن نتحمس لها، لأنه هو نفسه لم يتحمس لشيء. كما أن أمثلته وأسلوبه لم يثيرا أي إعجاب يذكر. فهو يفتقد حماسة

أفلاطون للإصلاح وحبه للإنسانية. كما نفتقد فيه أصالة أستاذه أفلاطون وجرأته وخياله الخلاق.

ومما يجعلنا غير متفقين معه تحمسه الشديد للمنطق. حيث يعتقد أرسطو أن القياس هو خير وسيلة للتفكير السليم. كما أنه يعتقد أن الفكر يبدأ بالمقدمات ويبحث عن نتائجها، مع أن الفكر في الحقيقة يبدأ بالنتائج ويبحث عن أسبابها ومبرراتها. ويكون البحث عنها بطريقة أفضل لو استخدم التجريب. لكننا يجب أن نكون منصفين أيضًا لأرسطو، فبعد ألفي عام لم يجد "بيكون" و"مل" ومئات غيرهما سوى بعض الملاحظات البسيطة جدًا على ما قاله.

وهناك ملاحظة أخرى وهي أن أرسطو لم يستخدم التجربة والاختبار. ولذلك يعتبر ما تركه لنا كمًا هائلًا من الملاحظات عسرة الفهم. وقد تميز فقط في جمع المعلومات وترتيبها، وقد أحسن التبويب والفهرسة لكل ما تناول من علوم.

أما عن الأخلاق عند أرسطو فهي فرع من منطقِهِ. كما أن الحياة المثالية تشبه القياس المنطقي الذي قدمه لنا. فهو يحدثنا في كتاب "الأخلاق" عن اللياقة والحشمة إلا أنه لا يتحدث عن الإصلاح، مما دعا أحد النقاد القدماء إلى القول بأن أفلاطون معتدل إلى حد الإفراط في الاعتدال.

وقد كان البريطانيون يلزمون بقراءة كتاب "الأخلاق" لأرسطو في جامعتي أكسفورد وكمبريدج. يقول ماتثيو أرنولد[1] إن الأساتذة في أكسفورد في وقته كانوا يعتبرون كتاب "الأخلاق" معصومًا من الخطأ. وقد شكل هذا الكتاب عقلية الطبقة البريطانية الحاكمة، وربما يكون قد دفعها إلى إنجاز أعمال عظيمة، إلا أنه صبغها بصبغة قاسية وباردة.

كما كان أرسطو يخشى الفوضى لدرجة تقربه من الاعتياد على العبودية والرق. وكان يخشى التغيير لدرجة دفعته إلى الاقتراب من الجمود والموت. ينتقد شيوعية

(١) - ماتثيو أرنولد (١٨٢٢-١٨٨٨م): شاعر وكاتب ومصلح تربوي إنجليزي لم يقتصر على الأدب، إذ تنوعت كتاباته بين الأدب والتاريخ والسياسة واللاهوت والعلم والفن. وقد كان تركيزه في أعماله ينصَب على وضع الإنسان الغربي المعاصر الذي يواجه الحياة من غير دين. (المترجم)

obeikan.com

الملكية التي نادى بها أفلاطون وفي نفس الوقت ينادي باستخدام الملكية الخاصة استخدامًا مشاعًا !!

وعلى الرغم من هذا النقد لأرسطو تظل فلسفته أكثر النظم التي وضعها عقل واحد شهرة وتأثيرًا. لقد استقت الأجيال التي جاءت بعده الكثير من أفكاره وعلمه، وتوصلت للحقيقة على يديه. كما لعب علم المنطق الذي وضعه دورًا كبيرًا في تشكيل العقول في العصور الوسطى البربرية وتثقيفها وتهذيبها.

وقد ترجم المسيحيون من أتباع المذهب النسطوري[1] أعماله الأخرى إلى اللغة السريانية[2] في القرن الخامس بعد الميلاد وإلى اللغة العربية في القرن العاشر. وقد حمل الصليبيون معهم نسخًا يونانية من كتب أرسطو وهي أكثر دقة، كما أحضر علماء اليونان من القسطنطينية كنوزًا من أفكار أرسطو عندما فروا من المدينة أثناء حصار الأتراك لها في عام ١٤٥٣م. كما أن أعمال أرسطو بالنسبة للفلسفة الأوروبية بمثابة الإنجيل للدين. وقد اعتبرت أعماله نصوصًا منزهة لا خطأ فيها. وقد فرضت الجمعيات الكنسية عقوبة الضلال على من ينحرف عن أفكار أرسطو.

كل ما سبق يوضح ما أحيط به أرسطو من تقدير طوال ألف عام. وقد ظل الحال كذلك إلى أن تزود كثير من الفلاسفة المحدثون بحجج قوية أدت إلى انتهاء تأثير أرسطو وسيطرته على عالم الفلسفة. ولم يتحكم أي عقل بشري على عقول البشر لمدة طويلة مثل أرسطو.

---

(١) - المذهب النسطوري: العقيدة القائلة بأن المسيح له جوهران يعبر عنهما بالطبيعتين وهما: جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني أو بشري وهو يسوع. وبحسب النسطورية لا يوجد اتحاد بين الطبيعتين البشرية والإلهية في شخص يسوع المسيح (حاشا لله). يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (المائدة - ١١٦). (المترجم)

(٢) - اللغة السريانية: لغة سامية مشتقة من اللغة الآرامية ويعتبرها بعض الباحثين تطورًا طبيعيًا لها. وقد نشأت اللغة الآرامية، وهي أصل اللغة السريانية، في الألف الأول قبل الميلاد لتكون العائلة الثالثة ضمن عائلة اللغات السامية، وكانت في القرن السادس قبل الميلاد لغة التخاطب الوحيدة في الهلال الخصيب إلى ما بعد الميلاد، حيث تحورت تدريجيًا واكتسبت اسمها الجديد "اللغة السريانية" في القرن الرابع تزامنًا مع انتشار المسيحية في بلاد الشام. (المترجم)

• ١٠- أواخر حياته وموته:

لم تستمر الحياة على حالها بين أرسطو والإسكندر. فقد أصدر الإسكندر حكمًا بالإعدام على "كاليثينيس" (ابن أخت أرسطو) لأنه رفض عبادته. وكان الإسكندر قد فرض ألوهيته على الشعب. ورد الإسكندر على احتجاج أرسطو على إعدام ابن أخته بأنه لا يتورع عن إعدام الفلاسفة أنفسهم. فآثر أرسطو السلامة حتى لا تتعرض البلاد للخطر في ذلك الوقت المضطرب.

ثم مات الإسكندر فجأة وحدث انقلاب أطاح بالمقدونيين من الحكم وأعلنت أثينا استقلالها. هرب معظم المقدونيين وأقام الأسقف الأول دعوى ضد أرسطو يتهمه بأنه قال إن الصلاة والقرابين لا فائدة لهما. وهنا أدرك أرسطو أن مصيره قد يكون المحاكمة وسط جماهير تكرهه. فترك المدينة قائلاً إنه لن يترك أثينا ترتكب حماقة أخرى ضد الفلسفة. ولكنه سقط مريضًا أثناء رحلة الخروج من أثينا وقيل إنه انتحر بشرب السم. لكن على أي حال، كان مرضه مميتًا، وقد مات وحيدًا بعد عدة أشهر من خروجه من أثينا وكان عمره ٦٢ عامًا.

وفي نفس العام شرب "ديمستين" ألد أعداء الإسكندر السم ومات وكان عمره ٦٢ عامًا أيضًا. وهكذا مات الثلاثة (الإسكندر وأرسطو وديميستين) في نفس العام. وخبت عظمة أثينا التي قامت على الفكر والعلم، وبزغت عظمة روما التي قامت على القوة. وساد العالم ظلام طويل استمر ألف سنة، انتظر العالم فيها صحوة الفلسفة مرة أخرى.